كاتب العـــرائض ...

للأســـتاذ نجاتي صدقي

تذكر جميل العكرماوي بعد مضي خمس وثلاثين سنة من عمره ، أن والدته كانت تقول له في حداثته : والله يا بني لأزوجنك متى كبرت من فتاة شامية ، جسمها أبيض مثل الثلج ، وشعرها أشقر مثل الذهب ، وخداها أحمران مثل التفاح ، وكان هو يسمع كلام أمه هذا وعلى ثغره ابتسامة الحداثة البريئة .

وماتت أم جميل ، وتعاقبت السنين ، فكبر جميل ، وتخطى العقد الثالث ، وأناخ الدهر عليه بأثقاله وهمومه ، فكان من البائسين المعدمين ، يضطر إلى ممارسة كتابة العرائض كوسيلة للمعاش ..

ورأس ماله في هذه المهنة : صندوق خشبي صغير ، وكرسي أصفر ، ومحفظة كرتونية ، وقلم حبر ، ودواة ، والقليل من الأوراق ، ونسخة من قانون العقوبات الجديد الذي نسخ قانون الجزاء العثماني القديم .

وبعد أن عمل في هذا الحقل عشر سنوات ، تمكن من ادخار بعض المال بفضل صفقات خاصة عقدها مع السذج من الفلاحين ، وكان يخفي هذا المال في حزام لا ينفك يطوق خصره ليلا ونهاراً ... وذات يوم راح يخاطب نفسه : أنت وحيد يا جميل ، وعليك أن تجد سبيلا قويماً لتتدبر فيه أمر ما ادخرته من مال ... هيا افتح لنفسك مكتباً يرفع من مكانتك بين الناس ... كلا . كلا ... هيا افتح لنفسك حانوتاً يدر عليك الربح الوفير ... كلا . كلا ... لا هذا ولا ذاك ... عليك أن تتزوج من امرأة غنية تستفيد من ثروتها واذكر ما كانت تقوله له المرحومة أمك : « والله لأزوجنك من فتاة شامية » وسرعان ما سافر إلى دمشق في طلب العروس .

حل جميل افندي في فندق « أمية » في دمشق ، وهو من أشهر فنادق العاصمة السورية ، وسجل في دفتره اسمه : « جميل بك العكرماوي محام من القدس » ... وكان يضع على عينيه نظارة بسلسلة ذهبية ، ويلبس لباساً أنيقاً ، ويثبت في ياقته دبوساً ثميناً ، ويحلي أصابعه بخواتم ذهبية ، وأشاع في الفندق بأنه أتى دمشق يطلب زوجة.

وإذ علم سماسرة الزواج في دمشق أن في فندق « أمية » وجيهاً فلسطينياً يود الزواج من فتاة مثرية ، هرعوا إليه ، وطرحوا خدماتهم عند قدميه .

وكان بطل قصتنا بحكم عمله ككاتب عرائض خبيراً بضروب الدجل والمخاتلة . فكان يستقبل سماسرة العرائس ، ويكرم وفادتهم ويساومهم ، ويستفهم عن الأسر القديمة الغنية ، ويجمع عنها المعلومات المفصلة إلى أن قرّ رأيه على خطبة بنت (...) باشا ، وهي تنحدر من أسرة تركية عريقة استوطنت دمشق منذ أيام عبد الحميد ، ثم أثرت ، واستعربت .

وبعد مداولات مع أهل العروس ، وهدايا متواصلة حملها جميل بك لابنة الباشا ، وحديث مطول ألقاه على مسامعهم عن أملاكه في فلسطين في عين كارم والخليل ... وبيارات في يافا واللد ... وعن مكتبه الرئيسي في القدس ، وفروعه المنتشرة في جميع أنحاء البلاد المقدسة ... اقتنعت أسرة الباشا بمكانة جميل بك السامية ، وكان له شريك في القدس يرسل إليه برقيات عن سير « القضايا » في دور المحاكم ! ...

وهكذا تمّ عقد قران ابنة الباشا على جميل بك العكرماوي في حفلة اقتصرت فيها الدعوة على الأقارب والأصدقاء ، ثم رحل العروسان إلى لبنان ليقضيا شهر العسل في فندق (الفاصوف) في ضهور الشوير ... وطالما كان يحدث العريس عروسه وهما في مصيفهما الجميل هذا ، عن أشهر مرافعاته في المحاكم محركا يديه ، وملوّحاً بأكمام (الروب ... دي شامبر) ، ومتنقلا في الغرفة ذهاباً وإياباً ، وكانت عروسه تستمع إليه طربة ، وهي مستلقية على مقعد وثير طويل وقد عقدت يديها تحت رأسها .

وقالت له مرة : حدثتني كثيراً عن قضاياك ... لكنك لم تحدثني قط عن حياتنا الزوجية في بلدك وكيف ستكون ؟

قال : دعى الحديث عن حياتنا المقبلة ، فقد صرنا الآن روحين فى جسم واحد ، أو جسمين تختلج فيهما روح واحدة ! ... وثقى بأننى سأوفر لك جميع أسباب الرفاهية والسعادة فى منزلى الجديد الذى أبنيه فى حى القطمون فى القدس . والآن أرجوك ترك هذا الموضوع الجاف ، وهيا بنا إلى البستان لنأكل ما طاب لنا من الفاكهة .

وبعد انقضاء شهر العسل سافر العروسان إلى القدس ، ونزلا فى بيت حقير شبه قذر يقع فى محلة (وادى الجوز) ... ولما وطئت قدما إبنة الباشا هذا البيت ارتدت إلى الخلف مذعورة وقالت : ما هذا الذى أراه يا ابن عمى ؟ !

قال : لا تضطربى ... إننى متخاصم مع أهلى ، وقد انفصلت عنهم مؤخراً ، واضطررت إلى استئجار هذا البيت المفروش مؤقتاً إلى أن يتم بناء بيتى الجديد فى حى القطمون ... وبيتى الجديد ... عفواً ... بيتنا الجديد ، هو عبارة عن طابقين مبنيين من الحجر الأحمر المعرّق ، وله حديقة غناء مزروعة بأطيب الزهور والرياحين ، وله أربع شرفات فى جوانبه الأربعة ، تطل إحداها على المدينة المقدسة ، وتطل الثانية على هضاب بيت لحم ، وتطل الثالثة على قرية الملاحة ، أما الرابعة فتطل على أحياء القدس العصرية ، وسأفرشه بأفخر الأثاث المصنوع من خشب الزيتون .

ومرّ الأسبوع الأول ، ثم تلاه الثانى والثالث ، ثم اكتمل الشهر ... وكل شىء باق على ما هو عليه ضمن الوعود المتواصلة وكانت سيارة تأتى إلى البيت فى كل صباح لتقلّ جميل بك إلى عمله ثم تعيده مساء ...

ويبدو أن ابنة الباشا قد خامرها بعض الشك فى سلوك زوجها ، فعقدت النية على أن تزوره فى مكتبه وأن تلح عليه بالذهاب معاً لرؤية البيت الذى لم يكتمل بناؤه بعد . وراحت فى أحد الأيام تبحث عنه وعن مكتبه بجوار دور المحاكم ...

وهناك سألت أحد سعاة البريد عن مكتب المحامى جميل بك المكرماوى ، فقال لها إنه لم يسمع بهذا الإسم قط ... ثم سألت غيره فتلقت منه الجواب ذاته ... ثم سألت عنه أحد كتاب العرائض ... فقهقه هذا وظنها عميلة جديدة وقعت فى فخ زميله جميل ... فقال لها : إننى لا أعرف جميل بك المكرماوى ، لكننى أعرف جميل المكرماوى كاتب العرائض ، وهاهوذا يجلس فى تلك الزاوية من العمارة ... وأنصحك بألا تكتبى عنده شيئاً فهو شخص يغرر بالسذج من الناس وإننى لعلى استعداد بأن أتقاضى منك من الأجر نصف ما يتقاضاه هو ... يضاف إلى ذلك أننى آخذ على عاتقى ملاحقة قضيتك فى جميع الدوائر ، هلا أطلعتنى أيتها السيدة على ماهية قضيتك هل هى جزائية ... أو حقوقية ... ؟

وتركته المرأة مسرعة إلى حيث أشار ، فرأت زوجها يضع ورقة على ركبته ، والعرق يتصبب من جبينه ، وهو يكتب رسالة لرجل فقير كسيح ...

فصرخت ... وخرّت على الأرض مغمى عليها .

نجاتى صدقى

إذا أردت نموذجاً

من الميزان الدقيق ، والتحليل العميق ، والرأى الثاقب ، والنقد الصائب ، والدليل الذى يرشدك إلى قيم أشهر الكتب

وأقدار أشهر الكتاب فاقرأ :

كتب وشخصيات

للأستاذ الناقد سيد قطب

فهو خير ما صدر فى هذه الفترة الأخيرة

من كتب التحليل والنقد

يقع فى ٣٥٢ صفحة من القطع المتوسط

ويباع فى ادارة الرسالة

وفى سائر المكتبات الشهيرة وثمنه ٣٥ قرشاً عدا أجرة البريد